القصة الشهرية

# زرياب الفارسى

## مغنى بلاط قرطبة

شهدت قرطبة فى عهد الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الثانى ما لم تشهده بغداد فى عهد رون الرشيد . فقد مات الحكم فى سنة ٨٢٢ ميلادية بعد أن قضى على الفتن الداخلية . وخضع الدهماء الذين أرادوا تعكير صفو البلاد . فخلف لابنه عبد الرحمن ملكا مستقراً . وسلطاناً واسعاً . وخزانة عامرة . وبلاطا مرحا ناعماً . فأخذ عبد الرحمن يتأثر خطوات الرشيد فى بغداد . فأحاط ملكه بكل ألوان الأبهة واللذة . وأمعن فى إقامة القصور وفى إنشاء الحدائق . وأخذ فى تجميل المساجد . وبناء المنشآت العامة

وكان عبد الرحمن كغيره من الملوك المثقفين يحب الشعر والغناء . ويقرب منه الأدباء ويغمرهم بحظوته ويحوطهم بنعمته . ويحب الفنون الجميلة . فيبسط لأصحاب الفن الجميل يده . ويحبوهم بحظوته . وفضلا عن هذا وذاك كان الخليفة نفسه شاعراً وأديباً . يجلس الى سريره فى ساعات الفراغ ليملى الشعر ويصوغ النثر . وكان لين الجانب دمث الأخلاق . واسع العلم . هادىء الطبع . لاعيب فيه إلا أنه سلس القياد . يخضع لرأى الخاصة من حاشيته

وكان لأربعة من خاصته الأثر الواضح فى حياته كلها . أولهم وأكثرهم نفوذاً المغنى ( زرياب ) الفارسى . وثانيهم الأميرة ( طروب ) وثالثهم الغلام ( نصر ) ورابعهم ( يحيى ) الفقيه

ولما كان زرياب الفارسى هو الشخصية البارزة فيما سنرويه لك من حديث فيحلو لنا أن نلقى بعض الضوء على نشأته وحياته . فقد كان زرياب غلاماً لأسحق الموصلى الوسيقار المعروف ببغداد تلقى عليه أصول فن الموسيقى والغناء ولازم سيده فى مجالس الغناء والسمر فكان منذ قدم الى بغداد من الموصل ومنذ طلق فارسيته . طالباً وغلاماً . وظل معنياً فى طلب الموسيقى حتى برع فيها وتفوق على أستاذه وسيده . فحدث ذات ليلة أن عقد الخليفة هارون الرشيد مجلس الغناء والموسيقى وسمح للغلام زرياب أن يشهد المجلس

الى جانب أستاذه وسيده إسحق الموصلي لأن الخليفة كان قد سمع ببراعته فى الفن وعلو كعبه فيه . فلما غنى إسحق وعزف . لاحظ الغلام عليه بعض الخطأ واستدرك بعض الزيغ . فسر هارون وأمره بالغناء والعزف . وأجزل له فى العطاء فغضب إسحق لهذا ، وكان له أعوان فى بلاط هارون . فما زالوا يدسون لزرياب ويشون به حتى غضب عليه هارون واستدعاه . فلما مثل بين يديه أمره بمغادرة البلاد خلال فترة عينها له بحيث يهدر دمه بعد انقضائها فغادر زرياب مدينة بغداد وشد رحاله الى الأندلس واختار قرطبة مقاما له . فلما ولى عبد الرحمن الثانى الملك كما قدمنا قربه منه واختصه بالحظوة . واختاره لمجالس الموسيقى والغناء ولم يفكر زرياب فى ذلك الحين فى أن يزج بنفسه فى شؤون الدولة . ولا أن يساهم فى أمورها السياسية . إذ كانت دسائس بغداد خير رادع وأمثل نذير له بسوء عاقبة من ينال الحظوة من هذه الناحية . لكن الخليفة دعاه يوماً الى خلوته بعد الفراغ من مجلسه . وبعد سهرة ظلت الى قبيل منتصف الليل . فلما مثل بين يديه قال له الخليفة :

أنت تعلم بأنك فارسى الأصل . لست من أبناء العرب . ولست تمت الى الأندلس الزاهرة بصلة . لكن إخلاصك واستقامتك . ومتانة خلقك . تنم عن أن للكرم نصيباً وفيراً من محتدك . فأنا مستخلصك لنفسى . على أن تكون صريحا كل الصراحة . حين استوضحك أمراً . كتوما غاية الكتمان . حين أودعك سراً .

فقال زرياب : أمد الله فى حياة مولاى . وجعلنى فداءه . لقد نعمت برضائك . واستمتعت بثقتك . فحق على أن أحمد الله على ذلك . ولكنى أرجو أن يتفضل مولاى فيعفينى من التدخل فى شؤون الدولة . وأمور الرعية

قال الخليفة : أتعصى لى أمراً وقد اتخذتك موضع الثقة . ومستودع السر ؟

قال زرياب : « حاشا يا مولاى أن أعصى لك أمراً . ولكنى أردت أن أسبر مقدار ثقتك ومبلغ إسرارك . ولو أن مولاى صبر يوماً واحداً ولم يكاشفنى بهذه الرغبة . لفضلت أن أغادر قرطبة على أن أبقى بها . أختلف الى القصر . وأستمتع بنعمة مولاى . فى حين أكون شريكاً فى الجرم . مساهما فى الاثم . فان جريمة شنيعة ارتكبت فى هذا القصر . وما يزال المجرم آمناً معافىً . يرتع فى نعمته . ويتقلب ظلاله »

فزع الخليفة لما سمع من الموسيقار زرياب . فكان كل همه أن يطمئنه ربما ينتزع منه ذلك السر الرهيب . فقال قل « يازرياب وأنت آمن » قال زرياب : « لو أنه يا مولاى أمر لايهدد كيان الدولة لترددت فى الافضاء به . ولكنه جريمة رهيبة كانت تهدد حتما كيان الدولة لولا ما اتخذت حيالها من إجراء بغير إذن مولاى »

أنصت الخليفة لقصة زرياب فقال :

« تذكر يا مولاى أنك أرهقتنى منذ ثلاثة أيام حين كنت تستحثنى على الغناء . ثم لاحظت بنفسك آثار هذا الارهاق فصرفتنى الى حديقة القصر وسمحت لى بأن أتريض أوجائها منفرداً وكان الليل قد انتصف . وهذا عنوان الثقة والعطف . فلما توسطت الحديقة بعيداً عن أعين الحراس . رأيت شبحاً يدنو من جدار القصر وهو يبالغ فى الحذر والحيطة. فثارت فى نفسى الشبهات . ورأيت أن آخذ بالأحوط . فانزويت وراء شجرة باسقة وعندئذ رأيت الشبح يستقر تحت نافذة من نوافذ الأميرة ( طروب ) . فأطفىء النور للتبعث من هذه النافذة . وتدلى حبل منها امتدت الى طرفه يد الشبح . فعبثت به قليلا . ثم ارتفع الحبل ومضى الشبح . فسارعت يا مولاى بالخروج من الحديقة . ودرت حول القصر الى أن وصلت تجاه النقطة التى قصد اليها الشبح . ولكنى ابتعدت عن الأسوار حتى أراه ولا يرانى . ورابطت هناك حتى اجتاز الشبح الساج . فتبعته حتى وصلنا سوياً الى قنطرة قرطبة . وهنالك تبينته راهباً من أعوان الأسقف ( اسحق ) الذى سمح له مولاى بأن يقيم بالمدينة وأباح له فى أمر دينه ما أباح الكتاب والسنة . فاستوقفته لأتبين جلية أمره فأبى . ولم يقتصر على إبائه بل استل من منطقته خنجراً يريد إغماده فى صدرى . فلم أمهله يا مولاى بل صرعته بضربة من خنجرى الفارسى ثم عمدت الى أردينه فتحصتها فألفيت فى طياتها رسالة من جارية الأميرة إلى قائد الفرنجة الأكبر « لويس ديبونير » تقول له فيها إن الخليفة مطمئن . هادىء البال . قد حشد الجند . وعبأ الجيوش . فابق مكانك ولا تغامر بجيشك حتى أنذرك .

عندئذ تناولت الخنجر مرة أخرى . وجئت الى جانب الراهب الذى كان ما يزال يئن من جرحه البليغ . واستخرته إحدى اثنتين . الافضاء باسم كاتب الرسالة . أو الاجهاز عليه . فان أتينا مؤلما ثم فاه بكلمات لاتيقية لم أتبين منها إلا أن الكتاب من « ثريا » جارية الأميرة « طروب » وعندئذ فاضت روحه الى بارئها .

لم أشأ يا مولاى أن أفزعك بمثل هذا النبأ بل قصدت تواً الى دار الأمير « ناصر » صاحب السيف وكاشفته بهذا السر . واشرت عليه بأن نبدل الرسالة حتى تصبح على العكس من الرسالة الأولى . فاستصوب ما أشرت به . وكتبنا الرسالة فعلا وأوفدنا بها أحد رسله السريين الى « لويس ديبونير » وقد أحلت الرسالة بضرورة الهجوم على حدود الدولة . وهانحن فى انتظار النتيجة . على أنى أشير على مولاى مرة أخرى بألا يمس الجارية حتى تثمر الرسالة وعندئذ يكون لنا موقف آخر

مضى على هذا الموقف إثناعشر يوماً كان فيها الخليفة مكتئبا مضطرب البال . وحدث فى الليلة الثالثة عشرة أن كان زرياب جالساً بين يدى الخليفة . فاستأذن الحاجب لرسول من لدن صاحب السيف وقائد الجيش يبلغه فيه بأن جيوش الأندلس قد هزمت جيوش الفرنجة على الحدود وينوه فيه بفضل « زرياب » دون أن يذكر شيئا من هذه القصة كلها . ولكنه التمس من الخليفة أن يدع تقدير الأمر الى « زرياب » نفسه . فلما أمر الخليفة الرسول بالانصراف من حضرته . قال هذا الرسول إنه يحمل خطابا آخر كأنه الأمير ناصر بأن يرفعه الى نديم الخليفة يدا بيد . فتناوله زرياب وفضه بأذن مولاه فوجد به أن الجارية « ثريا » هى صاحبة الكتاب الأول وأنها دسيسة فى خدع الأميرة طروب وأنه اكتشف خلال تحقيقاته مع أسرى الفرنجة أن الجارية الخائنة أعجمية الأصل تمت الى هؤلاء الفرنجة بصلة

اطلع الخليفة على كل هـذا . فاستفتى زرياب فأفتى بمحاكمة الجارية أمام قاضى المسلمين فقبض عليها وسيقت اليه . فحكم بحز رقبتها إذ عرضت جيوش المسلمين للخطر . ومالأت الفرنجة على دولة الأندلس . فنفذ الحكم على نفس قنطرة قرطبة التى صرع الراهب عليها .

وكان الفضل فى إحراز المسلمين النصر فى هذه الملحمة التاريخية المعروفة بموقعة « لويس ديبونير » للموسيقار الفارسى « زرياب سمير الملك » (ط)

## أمل يتحقق

تفتحت أكمام الأمانى عن نور الأمل . فتأرجح بين الشك واليقين حيناً بعد حين ... ثم تأرج شذاه وفاح منه العبير ! واذا الأمل الباسم حقيقة ساطعة نلمس بالأكف و « نقرأه » بالعيون :

« العلم الالزامى كجوهرة فى صندوق تراكمت عليه أتربة الأقاويل . ومهمتنا فتح هذا الصندوق ليظهر هذا العلم فيبهر الناس جميعاً » بخ بخ يا رئيس الاتحاد ! !

ها هو ذا « الصندوق » يفتح بيدك القوية . وها هى كلمتك الحكيمة تأخذ سبيلها الى الظهور .

وسيبرهن للعلم الالزامى أنه أهل لهذا الوصف الذى وصفته وأن هـذه الكلمة الجليلة تمثل نفسه النبيلة . وانه ابن بجدتها وصاحب عترتها . ومرحى ومرحى « بصحيفة التعليم الالزامى » ترمى عن قوسنا وتفصح عن شعورنا وحسنا وتكون مرآة لآلامنا وآمالنا .

ومن العلى القدير نستمد العون إنه ولى التوفيق

محمد عيسى موسى
غيب البحيرة وعضو الاتحاد